

تفسير البحر المحيط

@ 197 @ الإفساد في الأرض تهيج الحروب والفتن ، قال : لأن في ذلك فساد ما في الأرض وانتفاء الاستقامة عن أحوال الناس والزروع والمنافع الدينية والدنيوية ، قال تعالى : { لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ } ، { أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ } ، ومنه قيل لحرب كانت بين طيء : حرب الفساد ، انتهى كلامه . ووجه الفساد بهذه الأقوال التي قيلت أنها كلها كبائر عظيمة ومعاص جسيمة ، وزادها تغليظاً إصرارهم عليها ، والأرض متى كثرت معاصي أهلها وتواترت ، قلت خيراتها ونزعت بركاتنا ومنع عنها الغيث الذي هو سبب الحياة ، فكان فعلهم الموصوف أقوى الأسباب لفساد الأرض وخرابها . كما أن الطاعة والاستغفار سبب لكثرة الخيرات ونزول البركات ونزول الغيث ، ألا ترى قوله تعالى : { فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ } ، { وَإِن لَّوُطَاءُ * اسْتَغَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ } ، { وَلَوْ أَنَّهُ لَ الْفُقَرَاءُ امْنُوا وَاتَّقَوْا } ، { وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ } والإنجيل . .

وقد قيل في تفسيره ما روي في الحديث من أن الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب ، إن معاصيه يمنع بها الغيث ، فيهلك البلاد والعباد لعدم النبات وانقطاع الأقوات . والنهي عن الإفساد في الأرض من باب النهي عن المسبب ، والمراد النهي عن السبب . فمتعلق النهي حقيقة هو مصادفة الكفار وممالاتهم على المؤمنين بإفشاء السر إليهم وتسليطهم عليهم ، لإفضاء ذلك إلى هيج الفتن المؤدي إلى الإفساد في الأرض ، فجعل ما رتب على المنهي عنه حقيقة منهياً عنه لفظاً . والنهي عن الإفساد في الأرض هنا كالنهي في قوله تعالى : { وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ } . وليس ذكر الأرض لمجرد التوكيد بل في ذلك تنبيه على أن هذا المحل الذي فيه نشأتكم وتصرفكم ، ومنه مادة حياتكم ، وهو ستره أموالكم ، جدير أن لا يفسد فيه ، إذ محل الإصلاح لا ينبغي أن يجعل محل الإفساد . ألا ترى إلى قوله تعالى : { وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا } وقال تعالى : { هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ * وَقَالَ * تَعَالَى * وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا * مَتَاعًا لَّكُمْ وَلَازِعًا مَّكُومًا * إِلَى طَاعَامِهِ * أَزَّاهَا صَبَّحًا صَبَّاءً } ، الآية . إلى غير ذلك من الآيات المنبهة على الامتنان علينا بالأرض ، وما أودع فيها من المنافع التي

لا تكاد تحصى . .

وقابلوا النهي عن الإفساد بقولهم : { إِنْ زُمَّ مَا زَحْنُ مُصْلِحُونَ } ، فأخرجوا
الجواب جملة اسمية لتدل على ثبوت الوصف لهم ، وأكدوها بإنما دلالة على قوة اتصافهم
بالإصلاح . وفي المعنى الذي اعتقدوا أنهم مصلحون . أقوال : أحدها : قول ابن عباس : إن
مملأتنا الكفار إنما نريد بها الإصلاح بينهم وبين المؤمنين . والثاني : قول مجاهد وهو :
أن تلك المملاة هدى وصلاح وليست بفساد . والثالث : أن مملأه النفس والهوى صلاح وهدى .
والرابع : أنهم ظنوا أن في مملأة الكفار صلاحاً لهم ، وليس كذلك لأن الكفار لو طفروا بهم
لم يبقوا عليهم ، ولذلك قال : { أَلَا إِنَّ زَهْهَمَهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلاَ كِنَ لَّهُمْ }
يَشْعُرُونَ .